

الدرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ..

أمّا بعد..

يقول الحافظ المنذري - رحمه الله - في كتابه كفاية المتعبّد وتحفة المتزهد..

٦- [وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابّا في الله تعالى اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عينها " متفق عليه]

الشرح..

هذا الحديث حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله - جعلنا الله أجمعين منهم بمنّه وكرمه - حديث عظيم مبارك فيه حث على هذه الخصال العظيمة والأوصاف المباركة الموجبة للظلال يوم القيامة، وعندما يستحضر المسلم ذلك الموقف العظيم يوم تدنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون على بعد ميل منهم ولا ثمّة في ذلك اليوم أشجار ولا جبال ولا أمكنة يستظل بها إلا في ذلك الظل العظيم المشار إليه في هذا الحديث الذي يظل به سبحانه وتعالى عباده المتقين وأوليائه المقربين ، فاذا استحضر المسلم ذلك الموقف العظيم تحركت نفسه لمعرفة هذه الخصال الموجبة للظلال والاتصاف بها طمعاً أن يحظى في ذلك اليوم بأن يكون من هؤلاء الذين يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله

وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بقوله [سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله]

وذكر العدد " سبعة " حثاً منه عليه الصلاة والسلام على ضبط هذه الأوصاف ومعرفتها معرفة جيدة من أجل مجاهدة النفس على التحلي بها والاتصاف بها ليكون العبد من أهل الظلال يوم القيامة ممن يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ،

قوله [سبعة يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه]

" يظلمهم الله في ظلّه " أي يوم القيامة ، في ذلك اليوم الذي تدنو فيه الشمس من رؤوس الخلائق وإضافة الظل إليه سبحانه وتعالى جاءت مفسرة في غير ما حديث عنه عليه الصلاة والسلام " في ظل عرشه " فالمطلق جاء ما يفسره ويقيده في بعض الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم ، فهذا ظل عرش الرحمن جلّ وعلا ،

والواجب على المسلم فيما يتعلق بأمور الآخرة والمغيبات أن يتلقاها بالتسليم والإيمان وأن يميزها كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن لا يقحم عقله القاصر دفعاً لهذه النصوص أو تشكيكاً فيها أو نحوها من الطرائق الآثمة الباطلة المحرمة ، فالظلم في الحديث جاء ما يفسره وأن المراد به ظل عرش الرحمن حتى إنه جاء في بعض ألفاظ الحديث " سبعة يظلمهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه "

وجاءت أحاديث أخرى في ذكر خصال موجبة للظلال زائدة على هذه السبع ، فليست الخصال الموجبة للظلال هي السبعة التي ذكرت في هذا الحديث فقط وليس الحديث حاصراً لها ، لأنه جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم خصال أخرى غيرها في غير هذا الحديث " مثل من أنظر معسراً " وجاءت خصال كثيرة توجب لصاحبها الظلال يوم القيامة ، وبعض العلماء أفردوا هذه الخصال في مصنفات خاصة جمعوا فيها ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من خصال توجب للعبد أن يظلمه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه . بدأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الخصال السبعة بالإمام العادل

قال صلى الله عليه وسلم " سبعة يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ، الامام العادل "

أي يقوم في رعيته بالعدل والقسط والبعد عن الجور والظلم والحيثف ويتقي الله فيما استرعاه من رعية و ولاءه من ولاية فيتعامل معهم بالعدل ، والعدل هو إقامة شرع الله وتطبيق حدود الله وإنصاف المظلوم وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم فمن كان كذلك من الولاية كان يوم القيامة ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ،

وقدّم النبي صلى الله عليه وسلم الامام العادل على غيره لأن نفع الإمام العادل نفع عام ومتعدي لعموم الرعية إذا وفقه الله لذلك ومنّ عليه بذلك وجعله من أهل العدل والإنصاف فإن النفع يعود على الرعية كلّهم ، فقدّمه لعموم نفعه للرعية كلها ، وفي هذا الحديث أن العدل ومراعاة الإنصاف والبعد عن الحيثف والظلم من موجبات الظلال يوم القيامة بل إنه من أعظم الخصال الموجبة لذلك

قال صلى الله عليه وسلم " وشاب نشأ بعبادة الله عز وجل "

أي نشأ عابداً من صغره وهو معني بالعبادة مقبل على الطاعة ليست عنده صبوة وليست عنده نزوة من نزوات الشباب وسفهم وطيشهم ، بعيد عن ذلك كله ، وقليل من الشباب من يوفق لذلك ؛ أن ينشأ نشأة لا صبوة فيها ولا نزوة وإنما نشأة ماضية على الاستقامة وملازمة طاعة الله وفي حديث في سننه مقال " عجب ربكم لشاب ليست له صبوة " فهذا أمر عظيم جداً أن ينشأ الشاب على هذا الوصف بعيداً عن نزوات الشباب مراعيّاً الاستقامة محافظاً عليها معتنياً بها ومن كان كذلك ونشأ على هذه الحال أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ولهذا ينبغي على الصغار أن يعوا هذا المعنى وأن يفهموه وأن يحرصوا أن تكون نشأتهم كذلك وهذا المقام مقام مجاهدة للنفس والله يقول ﴿والذين جاهدوا فينا لنتهديتهم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وقال صلى الله عليه وسلم " ورجل قلبه معلق بالمساجد "

يجب المساجد حباً عظيماً وقلبه مرتبط بها ، معلق بها إذا خرج من المسجد وأدى الصلاة اشتاقت نفسه أن تدخل إليه في صلاة أخرى وتاقت إلى ذلك ، لعظم مكانة المساجد في قلبه وذلك لما يجده في المساجد من قرّة عين وأنس خاطر وبهجة قلب ، والمساجد قرّة عيون المؤمنين وهناءة قلوبهم وراحة نفوسهم فيها يجدون راحتهم وسعادتهم ولاسيما في وقوفهم

مؤدين للصلاة المكتوبة والطاعة المفروضة في بيوت الله كما أمرهم الله ﴿ في بيوتِ أذنَ اللهُ أن تُرْفَعَ و يُذَكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالْعُدْوِ والأَصَالِ ﴾ رجالاً لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإِقَامِ الصلاة ﴿ فمن كان قلبه كذلك معلّقاً ببيوت الله محبباً لها محافظاً على أداء الصلوات الخمس المكتوبة فيها حريصاً على الجلوس في المسجد والمكث فيه كان من السبع الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظله إلا ظله

وليس معنى قلبه معلق بالمساجد أي أنه يبقى دائماً في المسجد لا يخرج منه بل هو يخرج لمصلحه ويؤدي أموره من تجارة إن كان ذا تجارة أو عمل إن كان ذا عمل لكن أعماله وحرفته لم تشغل قلبه عن التعلق بالمسجد وانتظار الصلاة والشوق إليها والحرص عليها ، ومن أمانة ذلك وعلامته المبادرة إلى الصلاة حينما يسمع الأذان لأن الناس عند سماع الأذان على صنفين :

صنف اذا سمع الأذان فرح وابتهج وترك كل ما في يده كيف لا وقلبه معلق بالمساجد وصنف اذا سمع الأذان ربما قلق وحسّ أن ثمة أمر سيُعيقه عن ما بيده من عمل فلهذا يتأخر ويبقى على عمله بل ربما انتهت وهو باقى على عمله لان قلبه معلق بعمله وصنعتة

وهذا الحديث يفيدنا فائدة عظيمة أن صلاح العبد من عدم صلاحه عائد إلى قلبه وبأي شيء هذا القلب متعلق ويميل ، فالإنسان تبع لهذا القلب كما قال صلى الله عليه وسلم:

" ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله "

وهذا الانسان يكون بحسب ما تعلق به هذا القلب فمن كان قلبه معلّقاً بالمساجد له شأن آخر وله اهتمام عظيم ببيوت الله سبحانه ، فمن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل معلق قلبه بالمساجد

وأعظم شيء بنيت لأجله المساجد الصلاة التي هي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين

قال صلى الله عليه وسلم " ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه "

جميع الخصال المذكورة يذكر رجل إلا في هذه الخصلة رجلان ، لأن التحاب يحتاج إلى مفاعلة بين اثنين هذا يجب هذا وذاك يحبه وتحابهم في الله ولأجل الله وهذا أوثق عُرى الإيمان

كما قال صلى الله عليه وسلم " أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله " وفي الحديث يقول الله عز وجلّ : " أين المتحابون في جلالي "

فالحب في الله من الأعمال العظيمة والخصال الجليلة وهو أوثق عرى الإيمان وفي الحديث " من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان "

وهذا الحب الذي يقوم في قلوب أهل الإيمان بعضهم لبعض هو مبني على هذا الإيمان الذي تحلوا به وكانوا من أهله كما قال الله " إنما المؤمنون إخوة " أي أخوتهم في الله ومبناها على الإيمان به وعلى طاعته ورضاه وهذه الأخوة والرابطة الإيمانية هي أوثق رابطة على الإطلاق وهي التي تبقى لأهلها في الدنيا والاخرة

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين ﴾ فكل رابطة تنقطع إلا الأخوة في الله

ولهذه الأخوة مقتضيات جاء تبيانها في كتاب الله ، ينبغي على المتأخين في الله أن يعملوا على تحصيلها ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ يأبى الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴿ يأبى الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توابٌ رحيم ﴾

هذه كلها مقتضيات لهذه الأخوة ومتطلبات للأخوة الإيمانية

ومثل هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا " حققوا هذه الأخوة ومعانيها بالبعد عن هذه الأعمال المنافية للأخوة الإيمانية ، وعليه فإن مثل هذه الأوصاف الغيبة والنميمة والغش والاستهزاء والسخرية إذا وجدت في المرء تجاه إخوانه المؤمنين فهذا من ضعف إيمانه وضعف دينه وضعف تحقيقه لهذه الأخوة الإيمانية ،

فالحاصل من يوفق لذلك التحاب في الله والتزاور في الله فإن هذه من الخصال الموجبة للظلال

قال " رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه " كان تلاقيهما واجتماعهما مؤسس على المحبة في الله ليست هناك مقاصد وأهداف دنيوية ولهذا كثير من المحبات التي تقع بين الناس تنتهي بالمصالح التي تكون بينهم والمطامع التي تكون بينهم إلا المحبة في الله باقية ، ليست باقية في الدنيا فقط بل في الدنيا والآخرة وقوله

" تفرقا عليه " أي فرقه الموت وهم على هذه المحبة ، مضوا عليها إلى أن فرقه الموت وهم على هذه المحبة ، ويفيد هذا الحديث أن هذه المحبة إذا أكرم بها المرء ينبغي أن يحافظ عليها وأن يحرص أن لا تضع منه وأن تبقى ثابتة معه إلى أن يموت في صفائه ونقاؤه ومحبهته لإخوانه والبعد عن الأوصاف الذميمة التي تضعف هذه المحبة وتخدشها ، فيحرص على هذه المحبة إلى أن يتوفاه الله وهو على هذه الحال طمعاً في أن يكون من أهل هذه الخصال الموجبة للظلال يوم القيامة .

ثم قال صلى الله عليه وسلم " ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى "

" رجل دعت امرأة " أي إلى نفسها لارتكاب الفاحشة والوقوع في الزنا وكانت المرأة " ذات منصب وجمال " اجتمع فيها المنصب والجاه والمكانة والمنزلة والشرف واجتمع فيها أيضا الجمال والحسن ، حسن الصورة و الهيئة والقوام إضافة إلى ذلك دعت إلى نفسها يعني لم يحتج المقام إلى مرادة وإنما هي التي دعت وراودته فامتنع ولم يمنعه من ذلك إلا خوف الله

" قال إني أخاف الله " مثل ما قال يوسف عليه السلام ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ بعد مرادة عظيمة من امرأة العزيز التي أوتيت منصباً وأوتيت جمالا وتهيأت ليوسف وتعطرت وتجملت وهو شاب غريب في فورة الشباب وقد أوتي شطر الحسن عليه السلام وهي التي راودته ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ واجتمع عدة أمور من المغريات منها أنه شباب وأنه غريب عن البلد وأن المرأة ذات حسن ومنصب وجمال وأنها تزينت وتهيأت وأن المكان غلق ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ وهي التي راودته بل توعدت وهددت ومع ذلك قال

﴿ معاذ الله ﴾ ، بل قال بعد ذلك ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ولم يقتصر الأمر عليها فقط حتى النسوة في المدينة صار مطمعاً للجميع ، ومع ذلك قال ﴿ معاذ الله ﴾

وقال ﴿ ربّ السجن أحب إلي مما يدعوني إليه ﴾ . فالحاصل أن من حصل له هذا الابتلاء وتعرّض لهذه المحنة والفتنة أن تدعوه امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فامتنع خوفاً من الله فإن هذا الامتناع موجب للظلال يوم القيامة وأن يكون ممن يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله .

وإن كانت اللذة هي المطلوبة ؛ فلا والله ليست بلذة أن يواقع حراماً للحظات يسيرة يبيوء بخزيه وعاقبته الوخيمة في الدنيا والآخرة

تفنى اللذائة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الخزي والعار
وتبقى عواقب سوء من مغبّتها لا خير في لذة من بعدها النار
أي خير في لذة للحظة يسيرة يعقبها حسرات و ندامات وأسقام وأمراض وخزي وندامة فإن
كان البحث عن اللذة ، فاللذة الحقيقية في الانتصار على النفس وإن من ينتصر على نفسه
في مثل هذا المقام يجد لذة في انتصاره على نفسه لا يجدها ولا يذوقها من يتعاطى تلك
الشهوة المحرمة الشهوة الخسيسة ، فإن امتناع الانسان عن الحرام طاعة لله يعقب في المطيع
حلاوة ولذة في نفسه لا يجدها العاصي في مقارفته للمعصية ، فإن كان البحث عن اللذة فيها
هي اللذة في الدنيا والآخرة ، ثم يكون هذا الامتناع موجب للظلال يوم القيامة ممن يظلمهم
الله يوم لا ظل إلا ظله هذه هي اللذة الحقيقية والهناء الحقيقية والسعادة الحقيقية في الدنيا
والآخرة ليست اللذة في مقارفة الرذيلة وفعل المحرم

وفي قوله " إني أخاف الله " في قول إني أخاف الله فائدة عظيمة جداً ولو أن العبد
استحضرها في كل مقام تدعوه نفسه للمعصية لسلم من المعصية ، **" إني أخاف الله "** هذا دواء
وشفاء وأمان للعبد من الوقوع في المحرم ولهذا ينبغي على العبد أن يستحضر خوف الله ، وكل
ما حدثته نفسه لارتكاب المحرم ذكرها بروية الله واطلاعه عليه وأنه سبحانه وتعالى لا تخفى
عليه خافية

وذكر ابن رجب رحمه الله - في أحد كتبه- " أن أعرابياً راود أعرابية في الصحراء عن نفسها وقال في
جملة كلامه لها في إغرائها قال ممن تخافين نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ، فقالت تلك الأعرابية

وأين مكوكبها ؟ أين مكوكب الكواكب خالقها فتوقف " ذكّرتّه بالله وخوفته بالله وهذا الوازع أعظم وازع وأكبر رادع على الإطلاق

يقول الإمام الشنقيطي رحمه الله - في كتابه أضواء البيان - : " اتفق العلماء على أن أكبر رادع وأعظم زاجر أن تعلم أن الله يراك "

فاذا استحضر المرء أن الله يراه وأنه مطلع عليه وأن الله لا تخفى عليه خافية وأن بطشه شديد وعقابه أليم وحرّك في قلبه خوف من الله لا يمكن أن يقارف الفضيلة ويفعل الرذيلة .

فينبغي للمرء أن يستحضر هذا المقام و **إني أخاف الله** يوجبه معرفتك بالله وأنه الرب العظيم الذي خلقك وأوجد فيك السمع والبصر الخالق للسموات والأرض والخالق للنعم كلها والمطلع عليك وعلى أعمالك وحركاتك وسكناتك كلها والبصير الذي يرى كل شيء ، يستحضر هذه المعاني فهي أكبر زاجر وأعظم رادع عن ارتكاب المحرم والوقوع فيه

قال " ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه "

أي من قوة إخلاصه وعظيم طمعه فيما عند الله تعالى ورغبته أن يكون العمل بينه وبين الله ؛ وهذه صدقة السر وشأنها عظيم ، ولا مانع أن تكون الصدقة علانية بالنية الحسنة مثل الصحابي الجليل عندما حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة ، فجاء يحمل معه مالاً وضعه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فتتابع الصحابة على إثر ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : " من سنن في الإسلام سنة حسنة " ، فإن كان هذا لقصد تحريك الآخرين وحثهم على الصدقة فحينئذ تكون حسنة اذا أعلنت ، والأصل في صدقة المرء أن يسرها إلا إذا كان فيه مصلحة في إعلانها وكان إعلانها عن نية حسنة وقصد طيب ، أما اذا أعلنها رياءً لم يقبلها الله منه كما في الحديث القدسي " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه "

وقوله في هذا الحديث **" ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه "** أي من مبالغته في إخفاء صدقته ، حتى إن بعض السلف من مبالغته في هذا الباب ، المتصدّق عليه لا يدري من تصدق عليه ؛ يأتي في جوف الليل ومعه الطعام واللباس والغذاء فيضعه عند باب الفقير ويمضي أو يطرق الباب ويمضي فلا يدري الفقير من وضعه ، حتى إنه ممّا ذكر في

بعض كتب التاريخ أن بعض الفقراء لم يعلموا بالشخص الذي كان ينفق عليهم إلا بموته لما مات انقطعت هذه الأشياء فعرفوا أنها كانت منه.. مبالغة في إخفاء الصدقة وأن تكون سرّاً بين العبد وبين الله تعالى

ثم قال صلى الله عليه وسلم " ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه "

أي فاضت من خوفه و خشيته لله

" خالياً " أي بينه وبين الله وهذا من إخلاصه وعظيم إقباله على الله وعظيم طمعه فيما عند الله

" ففاضت عيناه " أي نزل الدمع من عينه من خشية الله وهذا مقام عظيم في خلوة العبد بينه وبين الله تعالى ولا سيما في جوف الليل وثلث الليل الآخر وقت التنزل الإلهي وسكون الكون وهدوء الناس ، قال صلى الله عليه وسلم " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر فيقول من يسألني فأعطيه من يدعوني فأستجيب له من يستغفري فأغفر له " فاذا وفق العبد للوقوف بين يدي الله وحسن مناجاته والتأمل في آياته والتدبر في كلامه فبكي من خشيته فإن ذلك من موجبات الظلال في ذلك اليوم العظيم ، الحاصل أن هذا الحديث حديث عظيم مبارك جمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الخصال العظيمة التي توجب لصاحبها أن يظله الله في يوم لا ظل إلا ظله .

سبحانك اللهم وبمحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آلّه وصحبه.